

البحث السادس

علم الأديان في العصر القديم¹¹⁹

ظهرت مسائل علم الأديان في الفكر اليوناني في وقت مبكر جداً ، وقد سبق ظهورها - كما هو الحال في العصر الحديث - تحلل إلى حدما من التقاليد الدينية السائدة ، وسقوط الحاجز المقدس الذي يمنع نقد الشخصيات الدينية أو الاستهزاء بها .

فهوميروس - تلك الشخصية الأسطورية التي تتجسم فيها الحياة الدينية بما يخاطها من طقوس ، وعادات ، وتقاليد - يصبح موضع تساؤل ، ويترل من عليائه إلى ساحة النقد ، والتلويح ، والتلميح .

فنقد التقاليد الدينية بقدمة لظهور علم الأديان ، غير أن لهذا النقد دافعين :

- دافع المعرفة .

- ودافع الإصلاح والتجديد .

وتظهر مسائل علم الأديان واضحة عند محاولة تحقيق هدف الدافع الثاني ، ويمكن للباحث أن

يشخص أعراض ظهور علم الأديان تشخيصاً ثابتاً وعماماً بما يلي :

إن أول لحظة يبدأ فيها علم الأديان ، هي تلك التي يتعد فيها الإنسان إلى حدما من العقيدة الدينية التي شب عليها ، وينظر إليها نظرة باحث عن الحقيقة ، غير متحامل عليها ، ولا متحيز لها ، وألا تكون نظرتة إليها نظرة قصير النظر ، سقيم الفهم ، وفي الوقت نفسه لا يمنع من البحث فيها قداسة ، أو شعور بالتبجيل غير القائم على أسس بيثة وواضحة .¹²⁰

ينحدر هذا النقد الذي يبدأ به علم الأديان من نظرة سلبية ، كما يمكن أن ينبع من اتجاه إيجابي ؛ فإذا

تولد من معرفة منظمة خالصة للمتناقضات داخل عالم التصور الديني ، أو نشأ من تعارض نظرة الدين إلى

¹¹⁹ اعتمادنا الرئيسي في هذا البحث على كتابنا : بحوث في علم الأديان المقارن ، وعلى :

Joachim Wach: Vergleichende Religionsforschung

¹²⁰) Vgl. Mensching : Geschichte der Religionswissenschaft S. 17

العالم ، مع الصورة العلمية المكتسبة ، التي تكونت حديثاً نتيجة البحث العلمى ، ولم يكن له هدف غير هذا ، فهو سلبى.¹²¹

أما إذا تولد النقد الدينى نتيجة التقوى الخالصة ، والمعرفة الصحيحة بالمسئله الإلهية ، والإلمام الكامل بأمور الدين ، مجردة عما لحق بها من شوائب ، وكان الهدف منه - أى النقد - الإصلاح فهو إيجابى .
وعلى أى حال ففى كلا الاتجاهين السابقين تخضع التقاليد الدينية التى لم تمس حتى الآن ، ولم يشك أحد فى صحتها ، وقداستها ، لأقيسة جديدة ، وموازن لم تكن موجودة من قبل ، جردتها من قداستها: وجعلتها غريبة على العقلية التى كانت تشعر بالأحس أنها - أى التقاليد الدينية - جزء من حياتها ، وهذه هى إحدى نتائج النقد الدينى بقسميه ، أى سواء كان الهدف منه :

- إخضاع التقاليد الدينية لوجهة النظر العلمية الدنيوية

- أو القضاء على العادات والتقاليد القديمة ، واستبدالها بأخرى جديدة ، تتفق مع طبيعة

العصر ، ولا تصطدم مع النصوص الصريحة لمصادر التشريع الدينى المتفق عليها.

إن وجود علم الأديان ، واستمراره ، مرتبط ارتباطاً كلياً بجرية الحكم غير المتحيز على التقاليد الدينية ؛ إذ هو لا يثبت فى جو تسيطر عليه العادات المتوارثة ، ولا يبن أناس يرسم العرف لهم أسلوب حياتهم ، ويمنعهم من التفكير فى الإصلاح والتجديد ، فإذا تحققت شروط وجوده تصبح التقاليد الدينية موضع بحث ومناقشة ، بعد أن تفقد قداستها ، وتُسلب منها قوتها فى التأثير على حياة المجتمع إلى حد ما ، وتصير كغيرها من الظواهر الاجتماعية ، خاضعة للنقد والتمحيص .

ظهرت هذه الصورة فى ساحة الفكر اليونانى فى العصر القديم ، فصاحبها وجود علم الأديان ؛ إذ بدأ فى عالم الفكر نقد - اتخذ الطابع " العلمى " - لتقاليد الدينية ، والأفكار ، والمعتقدات التى تضى على الأساطير ثوب القداسة . وطبعى أن هذا لم يكن الهدف منه علمانياً محضاً ، ولا محاولة ترجيح النتائج العلمية - التى توصل إليها الإنسان عن طريق البحث فى الطبيعة - على العقائد الدينية - فقد ظهر هذا التيار فى الفكر الإنسانى فى وقت متأخر جداً ، وبالتحديد فى القرن التاسع عشر بعد الميلاد - ، بل دفع إليه الشعور بالحاجة إلى الإصلاح والتجديد ، وهو أمر دفع المفكرين اليونانيين إلى الإهتمام بالدين ، والنظر إليه من " الوجهة العلمية " ، فبدت أمامهم مشاكل ، واعتراضات تكونت من معالجتها الأساسية التى

¹²¹ المصدر السابق ١٨

اتخذها علم الأديان نقطة انطلاقه ، ولا زالت حتى اليوم قاعدته الأساسية التي لا يجوز للباحث في علم الأديان أن يغفلها .

ولكى نوضح المشاكل التي أذنت بظهور علم الأديان في تاريخ البشرية ، يجب أن نعرض لبعض ملامحها التي ظهرت عند روادها الأول في الفكر اليوناني والروماني ، وذلك بعرض وجهة نظرهم " الجديده " - بالنسبة لما كان عليهم أبناء عصرهم - تجاه الدين الذي كان سائداً آنذاك ، وتجاه قضاياها التي يسلم بها المتدينون ، دون اعتراض . ومن الواضح أننا لن نتناول في هذا العرض الأفكار الفلسفية البعيدة عن الدين .

تنحصر المشاكل التي سنعرضها في ثلاث :

- ١ . النقد الديني .
- ٢ . تفسير الأساطير .
- ٣ . أصل الدين ؛ أصل تكويته .

النقد الديني

اهتزت الصورة الإلهية الموروثة عند اليونانيين ، وترنحت عقيدتهم في القرن السادس قبل الميلاد . ويرجع ظهور نقد التقاليد الدينية ، والاعتراضات على قوانين الآلهة إلى النشاط العلمي الواسع في البحث عن معنى العادات الدينية ، ومفهوم التصورات الميتافيزيقية . ورغم شموله مجالات مختلفة ، فقد كانت عدالة الآلهة هي الموضوع الأول والرئيسي . وكان النقد الموجه إليها نابعاً من شعور عميق بالعفة ، والفضيلة ، مدركاً للقيم الأخلاقية .

واجه هذا الشعور الديني صورة مضادة لما عنده ، وذلك فيما تحكيه الأساطير التقليدية عن أعمال الآلهة ، وسياستها .

كان "تيوجنس" Theognis "أول من نقد " زيوس Zeus " (أبا الآلهة والبشر) ، وذلك بلهجة لاذعة يبدو منها البعد والتصلب من الإيمان المطلق في ذلك العصر ، عصر ما قبل التاريخ ، حيث يقول:

- صديقي العزيز زيوس ! تعجبني سياستك أيها المتحكم في كل شيء
- لقد جمعت في يدك الشرف ، والقوة العليا ، ووحدهما .
- هذا حسن ، فأنت المتصرف في قلوب ، وحواس البشر .

¹²² (شاعر يوناني قدم (حوالي ٥٠٠ ق.م .) نظم في السياسة ، والأخلاق ، والدين .

- ولكن كيف تقضى يا "Kronida" بالمساواة في المصير .
- كيف تسوى بين الصالح والطالح .
- يستوى الأمر بين أن يكون القصد الإصلاح والتحكم ؟
- وماذا لو دُفِعَ الإنسان تحت الغواية ، فارتكب إثماً ؟ ١٦٣

لم يبدأ بعد - كما يبدو - علم الأديان الحقيقي ؛ إذ لم يخرج النقد عن دائرة المشكلة القديمة ، ألا وهي السؤال عن إرادة الله الشر ، فإذا لم يُرد ، فكَم يقع في ملكه الذي يتحكم في كل ذرة فيه ؟ يدور الجدل حول هذا الموضوع - في غلب الأحيان - بين أناس ، رسخ الإيمان في قلوبهم ، وسيطرت الشرائع الدينية على حواسهم ، ولذا فمظهر هذا التساؤل من تيوجنيس أقرب إلى علم اللاهوت منه إلى علم الأديان ، غير أننا نراه مقدمة ، وإرهاصاً لمظهر علم الأديان ؛ إذ يحمل هذا التساؤل عنصر الشك في عدالة الآلهة ، ويلقى ضوءاً حول الأشياء الغامضة التي تحدث للإنسان . وهي ظاهرة تسبق النشاط العلمي في مجال الدين ، الذي ظهرت ملامحه واضحة عند " إكسينوفانس Xenophans " - منتصف القرن السادس قبل الميلاد - ، فقد كان النقد الديني غالباً على فكره ، غير أن دوافعه لم تكن العداء للدين ، بل عدم احترام تصور الأساطير للآلهة ، لأنها تنسب إليهم أعمالاً غير أخلاقية .

يقول إكسينوفانس :

" نسب " هوميروس Homer¹²⁴ و " هيزيود Hesiod¹²⁵ إلى الآلهة كل مالمدى البشر من إهانة العار ، والسباب ، والسرقعة ، والزنا ، والغش ، والاحتيال على بعضهم ، والخذاع المتبادل بينهم .¹²⁶ ولم

¹²³ W. Nestle : Griechische Geistesgeschichte 1944 S. 49

¹²⁴ شاعر وفيلسوف يوناني ، طُرد من وطنه ، فعاش متجولاً ، ثم استقر أخيراً في جنوب إيطاليا . تنقد الأساطير الدينية اليونانية ، واستهزأ بأسلوب ساخر بتصور اليونانيين للآلهة بأنها تشبه لإنسان في هيئته ، وأنها تتصف بجميع الصفات البشرية من أخلاق وعادات وتقاليد... الخ ، وخلص من نقده هذا إلى الاعتقاد بوحدة لموجود الأول ، وبقائه ، ومخالفته للحوادث .

¹²⁵ شاعر يوناني ، تُنسب إليه الإلياذة والأوديسا - عاش في ماية القرن الثامن قبل الميلاد - ، غير أن " F. A. Wolf " ادعى في عام ١٩٧٥م أنهما من تأليف عدة شعراء ، ويدور البحث منذ ذلك التاريخ حول وحدة الأفكار فيهما وعيل بعض الباحثين في العصر الحديث إلى أن الإلياذة تتماز بوحدة النظم ، أما نسبة الأوديسا إلى شاعر الإلياذة فلا يقول به إلا عدد قليل من الباحثين .

¹²⁶ شاعر يوناني - ولد حوالي ٧٠٠ ق.م. - نظم الشعر حول نسب الآلهة ، ونشأة العالم ، وهو أول شاعر يوناني يذكر اسمه على رأس قائمة الشعراء اليونانيين ، فيؤي - وكذلك هوميروس - يعتبر عند اليونانيين أول من صور عالم الآلهة

¹²⁷ Fragm. 11-12 Nestle 64

يكن عدم الاحترام فقط هو الدافع إلى هذا النقد ، بل أيضاً عدم ملاءمة الصورة الموجودة في التقاليد الدينية الشائعة لما ينبغي أن تكون عليه الآلهة :

" يعتقد الناس أن الآلهة يتوالدون ، ويتناكحون ، وأن أشكالهم ، وهياكلهم تشبههم ، وأنهم يرتدون

ملابس مثلهم ، ويتحدثون بلغتهم . " ١٢٨

وهنا يصل إكسينوفانس إلى مشكلة التصور في الدين ، وبين ارتباط تصور الإنسان للإله بشكله هو

- أي الإنسان - وهيئة بوضوح في القطعة التالية :

- يتصور الأثيوبي الإله بأنه أسود مفرطح الأنف .

- ويتخيله الطوراني أزرق العينين أصفر الشعر . " ١٢٩

- لو كان للخيل والبقر والأسود أيد مثل الإنسان ،

- لاستطاعوا أن يرسموا مثله ، ولأنتمجوا لأنفسهم أعمالاً فنية ،

- وحينئذ ترسم الخيل رباً ، والأبقار أبقاراً .

- كذلك يرسم كل منها إلهه طبقاً لصورته .

- ولأصبحت صورة الإله المرسومة بأيديهم أحب الصور إليهم . " ١٣٠

استمرت هذه الأفكار التي ظهرت لأول مرة في الفكر اليوناني في مجال البحث - وخاصة في بحوث

علم الأديان - من عصر إكسينوفانس حتى عصر " فويرباخ Feuerbach " (١٨٠٤ - ١٨٧٢) دون

أن تتغير ، على الرغم من إعادتها ، وتكرارها ، ودون أن تصبح أكثر دقة . ولا نريد هنا أن نسين ذلك ، وإنما نوضح :

- أن التفكير "العلمي" الخاص اهتم بالظواهر الدينية ، وبالعبادات ، والطقوس التي يمارسها

الإنسان ، وبطريقة التفكير عن الخطايا تجاه الآلهة .

- وأنه لاحظ لأول مرة أن هناك علاقة بين الإنسان وبين تصوره للآلهة .

- وهذا يعني في الوقت نفسه محاولة التخلص من العقيدة الساذجة في الأصنام والأوثان ، مثل

عقيدة من سمع الرحي الإلهي بنفسه ، ورأى الحقيقة بعينه .

¹²⁸) Fragm. 14 Nestle 64

¹²⁹) Fragm. 14 Nestle 64

¹³⁰) Fragm. 15 Nestle 94

كذلك يبحث علم الأديان - بجانب تناوله المعتقدات الدينية - النواحي العملية - من طقوس ، صلاة ، وتقديم قرابين ... الخ _ ، فقد تناولها المفكرون اليونانيون بالدراسة ، والتمحيص ، فلم تسلم من نقدهم . يقول " هيرقليط Herakls " ناقداً طريقة التكفير عن السيئات :

" هم يطهرون أنفسهم من الأوساخ التي علفت بها - وهيئات أن يتطهروا - بدهن أجسامهم بدم القرابين ، مثلهم في ذلك مثل من خاض في الأوحال ، ويريد أن يغسل ماعلق به بأثاقذورات ، ألا يعد هذا المرء أقرب إلى الجنون ، عند من يراه وهو يقوم بهذا العمل ؟ يتوجهون بصلاقم إلى هذه الأصنام ، فلا يختلفون عمن يقف أمام هذه المنازل ، يوجه إليها الخطاب - أو يثرثر أمامها - دون أن يكزن لديه أى تصور عن جوهر الآلهة ، أو عن الأبطال الذين يعدون أنصاف آلهة .^{١٣١}

يواجه علم الأديان دائماً - سواء كان في مستهل ظهوره في العصر القديم . أو في عصر ازدهاره - خطر الانحراف ، بسبب طابعه العقلى الخفض ، وإهماله جوهر العواطف الإنسانية ، وتأثير الأشياء المقدسة على نفسية المؤمن - وهذا ما يبدو في نقد هيرقليط - ، فإن من المسلم به أن المعتقدات البدائية ، والعبادات الساذجة ، تحتل مكاناً مغايراً لما لدى هيرقليط ، عندما يشرحها باحث آخر ، فيبرز النواحي الإيجابية فيها تجاه المؤمن بها من الناحية النفسية : والخلقية ، والاجتماعية ؛ فقد نقد أفلاطون الأديان البدائية^{١٣٢} ، ولكنه عاد فأجاز بعض العبادات فيها ، بعد أن حور معناها ، ومقصدها ، يذكر " تيموس Timaus " - مؤرخ يوناني ٣٤٥ - ٢٥٠ ق.م. - مقالة أفلاطون في هذا الصدد :

" نحن نعتقد أن الآلهة الحية ترعانا برحمتها ، وتشملنا بعنايتها ، لأننا نقدر صورها غير الحية " يقصد بذلك الأصنام" ، كذلك نقد " أريستوفانس Aristophanes " فسق الآلهة وشرورها - كما تصورها الأساطير - نقداً لاذعاً^{١٣٣}

خضعت الدولة اليونانية للرومان في القرن الثاني قبل الميلاد ، فكان ذلك سبباً من أسباب الاتصال الفكرى بينهما في جميع المجالات ، ومن بينها موضوعنا الذى نتحدث عنه ، غير أننا سوف نكتفى بنقد أحد كبار مفكرى الرومان للحياة الدينية ، ألا وهو " سنيك Senece " المتوفى سنة ٦٥ م. ، لأنه كان متأثراً إلى حد كبير بالمدرسة الرواقية .

¹³¹) Fragm. 5 Nestle 71f.

¹³¹) Mensching : Geschichte der Religionswissenschaft S. 22

¹³²) Mensching a. z. O

¹³³) Mensching a. z. O

وجه سينيك نقده إلى خلو المعتقدات الدينية ، والعبادات من الروحانية ، ودعا إلى الإخلاص ،
وطهارة النفس ، وإلى الإيمان بالإله عقلاً ، وروحاً ، وذلك حيث يقول :

"هل تريدون أن تتصوروا الإله عظيماً ورحيماً ؟ ... إذن ، فلا يحتاج المرء إلى تعظيمه عن طريق
تقديم الضحية التي تسيل دماً . أى لذة تلك التي هيئها له قتل النفس البريئة ؟ ، بل لا يكون تعظيمه إلا
بالقلب الطاهر ، والنية الصادقة في عمل الطيبات . لا يحتاج المرء إلى أن يبني له معبداً من الحجر ، على
الأبراج ، بل ينبغي على كل فرد أن يهب له قلبه ."¹³⁴

تفسير الأساطير

لم ينفرد النقد السلبي - قل أو أكثر - بمسرح الفكر اليوناني ، كان هناك تيار فكري آخر ، اتجه
اتجهاً إيجابياً ، في فهم ، وتفسير الأساطير الدينية ؛ إذ حاول تأويل ما لا يقبله العقل من هذه الأساطير ، تارة
بيان أن اللفظ ليس مستعملاً في معناه الحقيقي ، بل المجازي ، وأخرى بتفسيره تفسيراً رمزياً .
فهيرقليط - وهو الذي نقد أسلوب التكفير عن السيئات كما سبق - يعترف أن الأسرار الدينية ،
لا ينفرد العقل المفكر بفهمها ، بل قد يضطر الإنسان أحياناً إلى استعمال طرق أخرى - مباحنة للعقل -
لفهمها ، ويتضح هذا الرأي من قوله :

" هو الواحد الحكيم ، سواء باسم زيوس أم لا " ¹³⁵

إذ يفهم من هذه الكلمة أن هيرقليط يرى أن اسم زيوس ، ليس إلا رمزاً للألوهية ، فلا يتعلق به
شيء من جوهرها . كذلك لا ينقص من قدر الإله ، إطلاق اسم زيوس عليه ، فهو يساعد فقط على
تصور الإنسان للإله الحى . وما يفيد في تأكيد هذا التفسير أن هناك ارتباطاً بين كلمة " Zen " ومعناها :
الحياة ، وبين " zeus " التي هى : عَلم بمعنى : الحى . ونستنتج من هذا أن هيرقليط فسر المصطلحات الدينية
تفسيراً رمزياً ، فكان ذلك بداية الاتجاه الرمزي - الذى اهتم به كثيرا علم الأديان في وقت متأخر جداً -
في تحليل الصور والشعائر الدينية .

حلل " بلوتارش Plutarch " ¹³⁶ نقطة مشابهة ، وكان الدافع له على هذا الاتجاه ذلك الجدل الذى
كان دائراً آنذاك حول الصورة الإلهية - ظهر هذا الجدل مرة أخرى في الكنيسة البيزنطية في القرنين الثامن
والتاسع بعد الميلاد - ، وتتلخص معالنه في الأسئلة الآتية :

¹³⁴) Fragm. 23 Nestle 73

¹³⁵) Fragm. 32 Nestle 73

- أَيْعَظَمُ الإنسان الصورة ، أم يتخذها وسيلة تعظيم الإله ؟
 - وإذا اتخذها وسيلة ، فهل تكون جزءاً من الإله أم رمزاً له ؟
 - ولأيهما يكون الجزء الأكبر من التقديس - أو التقديس مطلقاً - للصورة أم لمن تمثله ؟
- يقول بلوتارش :

" يجب على الإنسان أن يسلم تسليماً قليلاً ، أنه لايعظم هذه الأشياء - الأحجار الميثة وغيرها - ، بل يعظم الألوهية بواسطتها ^{١٣٧} ، فهي أكثر الوسائل وضوحاً ، في انعكاس الألوهية ، وأقربها إلى طبيعة الإنسان ، فيجوز له أن يعتبرها - أى الأصنام وما شابهها - قطعة فنية - أو آلة - للألوهية التي تنظم العالم وتدبره " ^{١٣٨}

ولكى نوضح وجهة نظر الباحثين في علم الأديان - في نظام منهجي مرتب - حول مشكلة الأساطير، ينبغي أن نقرر هنا أن هيرقليط أشار - وذلك فيما يتعلق بكل ظواهر التكوين السديني - إلى أن الأفكار والأسماء ماهي إلا إشارات ورموز للحقيقة ، تشير إلى جوهر الألوهية الغامض ، دون أن ينقص ذلك من كماله .

عندما تهتم الفلسفة اليونانية بمسائل علم الأديان ، تذهب في تفسير الأساطير مذهباً آخر : التفسير المجازي ، وهو يؤكد ما أشرنا إليه سابقاً من أن علم الأديان يولد في جو تسيطر عليه العقلية المفكرة تفكيراً منطقياً ، إذ يندرج تحت هذا التفسير ثلاثة آراء تتسم كلها بالطابع العقلي ، ويحدد معالمها التفكير المنطقي . رفض العقل الصورة الدينية التي رسمتها الأساطير ، لذا اهتم بتأويلها ؛ إذ لم يكن مقبولاً إنكارها مطلقاً ، لأنها مقدسة - مافي ذلك شك - ، ولأنه يطن أنها تحتوى على الحقيقة الإلهية الغامضة ، إذن ليس هناك سوى محاولة تفسيرها تفسيراً مجازياً .

فهم كثير من المفكرين اليونانيين الظواهر الدينية في الأساطير على معناها المجازي ، وبجانب هؤلاء الذين اتبعوا الأسلوب المجازي في الشرح ، وجدت مجموعة أخرى ، اتجهت في تفسيرها اتجاهاً تاريخياً ؛ إذ رأيت أن في هذه الكلمات حقيقة مستورة لايفهمها إلا من اتصل اتصالاً روحياً بمنبعها .

¹³⁶ فيلسوف ومؤرخ يوناني (٤٥ - ١٢٠م) تقلد منصب العمودية في بلدة "Charonea" فأتاح له ذلك فهم طبقات الحكم ، ثم تقلد منصباً كهنوياً في دلفي . جمعت كتاباته الفلسفية وتعلمية تحت عنوان " أخلاقيات " وكانت لمقارنته بين الحياة اليونانية والرومانية - في مجالات الأبطال ورجال الحكم ، وطبقات الجار - أثر كبير على الأجيال المتأخرة حتى العصر الحديث .

¹³⁷ يقترب هذا الرأي من تفكير كفار مكة ، حيث قالوا : " مانعبدكم إلا لقبونا إلى الله زلقى "

وسوف نتناول أولاً التفسير المجازى :

١. أن أول من استعمل هذا التفسير هو " تيوجنيس فون رجيون Theognes von Rhgion " - القرن السابع قبل الميلاد - ، ويتضح ذلك من فهمه لمعركة الآلهة .^{١٣٩} كانت المعركة الإلهية في إلياس سبباً في ظهور التفسير المجازى لدى المفكرين اليونانيين ؛ لأنهم أدركوا أن من المستحيل أن الآلهة يتصارعون ، إذن يحمل الأمر كله على معنى آخر ، معنى مجازى يرفع هذه الاستحالة ، ويلبس الأحداث صورة يقبلها الفكر ، فليست الآلهة في الأساطير إلا قوى الطبيعة ، لا على أنها صورة في صيغة رمزية طبيعية ، بل تنوب الآلهة عن قوى الطبيعة في أعمالها : فـ " أبوللون Apollon " ،^{١٤٠} و " هيليوس Helios " ،^{١٤١} و " هيفيستوس Hephästos " ،^{١٤٢} يمثلون النار . و " بوزيدون Poseidon " ،^{١٤٣} وإله النهر " سكامندر Skamander " يمثلون الماء . و " هيرا Hera " ،^{١٤٤} الهواء . و " أرتمس Artemis " ،^{١٤٥} القمر .

سار " بيرمينيديس Purmenides " - حوالي ٥٠٠ ق.م. - ، وكذلك " إيمبيديكليس Empedikles " - توفي عام ٤٣٠ ق.م. - على نفس الطريقة في تصنيف الآلهة ، وتوزيع قوى الطبيعة عليها ، والتحدث عن كل قوة باسم من وكل بما . إن الاعتقاد في تشخيص قوى الطبيعة ، أو في أن الآلهة موكلة بها ، كل حسب اختصاصه ، ظل الفكرة السائدة في مجال علم الأديان حتى العصر الحديث .

¹³⁹ ملحمة شعرية نظمها هوميروس ، ويتحدث في إحدى مقاطعها عن الحروب اليونانية التي دامت سنين طويلة .

¹⁴⁰ إله النور ، والشعر ، والموسيقى . كان اليونانيون يعتبرونه الإله الأعظم ، وهو أول الآلهة التي أخذها الرومان عن اليونانيين . وفي عهد أغسطس اعتبر الإله الحامي للعرش . وتحكى الأساطير أنه ابن الإله زيوس .

¹⁴¹ إله الشمس ، وهو ابن " هيريون Hyperion " تحكى الأساطير أنه سير نهاراً في السماء بعربة الشمس ، تجرها أربع من خيول ، ثم يعود ليلاً إلى الشرق في قارب ذهبي عبر النهر الذي يحيط بالعالم .

¹⁴² إله النار ، ومنه الحوارة ، وهو زوج أفروديت .

¹⁴³ إله البحر ، فعندما قسم العالم بينه وبين أخيه ، كان نصيبه البحر ، فأقام هناك في قصر ، شُيد في أعماق مكان في البحر . ويسميه هوميروس إله الزلازل .

¹⁴⁴ إلهة إبنة " Korons " و " Reneia " ، وهى أخت وزوجة " Zeus " ، وكانت تعتبر حامية الزوجية ، والمرأة عموماً .

¹⁴⁵ إلهة القمر ، إبنة " Zeus " ، و " Reneia " ، حامية الحيوان البرى ، وإلهة الصيد .

(146) Mensching : S. 25

٢. بجانب التفسير المجازى للأساطير على النحو السابق - وهو تشخيص قوى الطبيعة - نطالع في العصر القديم تفسيراً أخلاقياً ، ونجد هذا الاتجاه عند " Thogenes von Thogion " . فهو يرى أن الفطنة تجسدت في " Athene " إلهة العلم والفن ، وعدم الفطنة في " Ares " إله الحرب ، والشهوة في " Aphrodite " إلهة الحب والجمال ، والخطاب في " Hermes " رسول الآلهة .^{١١٧}

وأوضح من تلك المحاولة ، تلك التي قام بها السوفسطائيون في شرح أصل فكرة الاعتقاد بالله : كيفية وجود الشرائع الدينية ، فذهبوا إلى أن الغرض من هذا كان الرغبة في الوصول إلى تحقيق أهداف أخلاقية ، تصلح المجتمع ، وتقوّم سلوك الفرد . ونظراً لأهمية هذا الاتجاه في إلقاء الضوء على مواقف أصحاب المذاهب الحديثة من الدين ، وبيان أن حججهم ليست جديدة على العقل البشري ، ننقل هنا فقرة من أسطورة : " Satyrspiel Sisyphos " :

- قبل العصر القديم، حيث كان الإنسان يعيش مع الحيوان في وحدة، متساوٍ معه في كل شيء .
- كان الحكم للأقوى ، دون أن يأخذ الطيب ثوابه ، أو ينال الشرير عقابه .
- حدث هذا فقط عندما - هكذا يبدو لي - وجد قانون العقوبات ،
- وطبق على الجميع بدون محاباة ، وضع الشرير في السلاسل والأغلال ، فمن ينتهك حرمة القانون ، يطبق عليه الحكم .
- كى يكفر عن سيئاته .
- نعم بلا شك ؛
- لأن القانون يصد الإنسان (عن ارتكاب الخطايا) على هذا النحو
- تسلسل المجرمون في الظلام .
- عندئذ اخترع - هكذا يبدو لي - رجل ذكى ماكر للإنسان الحرف والخشية من الله .
- ليكون ذلك ردعاً للأشرار .
- فلو كان العمل بعيداً عن أعين الرقباء .
- والكلمة مقولة في السر والخفاء .

¹⁴⁷) Vgl. Mensching S. 25

- والأفكار لم تنزل هو اجس في عقل الإنسان .
- علم بما الواحد الصمد - هكذا يقرر الدين - ،
- الخالد ، الذى يبسط سلطانه على كل الوجود .
- فهو يسمع ويرى ، وهو الحكيم العليم .
- يراقب الكل مراقبة إلهية ، فهي طبيعته .
- يسمع كل كلمة يتلفظ بها الإنسان .
- يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور .
- هكذا تراقب الآلهة ، ثم تفكر .
- فتلك فلسفتها ، وحكمتها .
- وبأسلوب مماثل شرّع - يعنى الرجل الذكى الماكر - أسمى الشرائع على الإطلاق.
- وعبر بالكلمات عن الحقيقة المستورة
- فاستسلم الخارجون عن القانون للشريعة .
- وهكذا - كما أعتقد - قاد الرجل الذكى الماكر .
- العالم إلى طريق الاعتقاد بالله .^{١٤٨}

ويلاحظ القارئ أن كاتب هذه الأسطورة يعتقد أن الأساطير الإلهية والاعتقاد فيها ، والالتزام بما تدعو إليه ، هو عمل اختراعى محض ، اخترع كى يضىفى على القانون الأخلاقى سيادة عليا ، ويراقب أعمال الإنسان مراقبة ذاتية ، تنبع من داخل الفرد نفسه ، أعنى من مقر الإيمان المستقر فى قلبه ، تذكره بأن هناك من يراقبه فى كل مكان وزمان ، دون أن تحول الحجب التقليدية دون ذلك .

٣. ظهر الاتجاه الثالث فى تفسير الأساطير تفسيراً مجازياً عند " بروديكوس Prodikos " أحد السوفسطائيين فى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ فهو يعلل وجود قوى الطبيعة فى الأساطير على هيئة أشخاص بقرها من الإنسان وفائدتها له ، فلم يؤله الإنسان - طبقاً لرأيه - بادئ ذى بدء ظواهر الطبيعة ، لبيان وظيفة الآلهة فى كل ظاهرة منها ، ولا ليحمى نفسه منها ، بل لأن حياته متعلقة بما : ألّهت النجوم ، والشمس ، والقمر ، والأهوار والينابيع ، والماء ، والنار ، والخبز ، والخمر ، لأنها مفيدة فى حفظ الحياة ، فحلول الألوهية فى هذه

¹⁴⁸) Fragm. 25

الأشياء - كما تحكى الأساطير - لا يبدل على معنى آخر أكثر من أنها بهذه الكيفية
ضرورية لحياة الإنسان . وبتعبير آخر : عبر إنسان ما قبل التاريخ عن تعلقه الكامل
 بالطبيعة ، وارتباط حياته بها بالأساطير التى تحكى تشخيص قوى هذه الطبيعة فى صورة
 آلهة .

بجانب التفسير المجازى الذى ذكرنا فى عرض أهم الشخصيات التى روجته داخل الحياة الفكرية
اليونانية ، ومناهجهم المختلفة فى بيان المعنى المجازى لمضمون الأساطير ، وُجد أيضاً فى العصر الكلاسيكى
القديم اتجاه آخر نحو حل لغز الأساطير الدينية عن طريق البحث فيها عن حقيقة اختفت معالمها . ويطلق
 " Nestle " فى كتابه " Grichische Geistesgeschichte " على هذا الاتجاه : " التفسير المنطقى " ، ولم
يوافقه " Mensching " على هذا الرأى :

" يبدو أن هذا التعريف غير مناسب لتمييز اجنصر الأساسى لهذا النوع من البحث ، ووضعه فى
مقابل التفسير المجازى ؛ لأن كلاً منهما "منطقى" ، فهذه الكلمة لا يراد بها المنهج ، بل المضمون ؛ إذ المعقول
هو ماتدركه الحواس ، وليس هو طريق الحصول على المعرفة . إذن لم يعد الأمر يتعلق بأن المراد قوى الطبيعة
بالذات ، أو ماتقوم به هذه القوى ، أو بأن المقصود بهذه الأساطير الوصول إلى تحقيق هدف أخلاقى ، بل
بيان أن هناك حقيقة عقلية مستورة فى نماذج - وصور - الأساطير الحسية . وواجب العلم الآن تخلص هذه
الحقيقة من ثوبها الأسطورى ، وتجليتها للعقل لدى الإنسان صاحب السوعى والإدراك . ولا يحتاج المرء
للوصول إلى هذه الحقيقة التى يظن وجودها فى الأساطير كنواة مختبئة إلى منهج منطقى ، بل أولى من هذا
وأهم منه ، أن يتبع المرء أولاً : الحقيقة تاريخياً ، ابتداءً من العصور الأولى ، حيث بداية تلك الأساطير .

أصل الدين

اهتم علم الأديان فى كل العصور بمشكلة البحث عن أصل الدين ، فظهرت أولاً فى الفكر اليونانى ،
بجانب شرح وتأويل الظواهر الدينية فى الأساطير ، ونوقشت من جوانب متعددة بغية الاهتمام إلى منبع
العقيدة الدينية عموماً .

بينما فيما سبق أن علم الأديان بقسميه يحتاج إلى أسس واقعية وظواهر عملية ، حقلاً لبحثه ومجالاً
لنشاطه ، وتحقق هذا فى النقطتين اللتين فرغنا من الحديث عنهما ، وهما : النقد الدينى ، وتفسير الأساطير .
أما النقطة التى نريد عرضها فى هذا المقام ، وهى البحث عن أصل الدين ، فليست من المشاكل الأساسية

التي يتناولها علم الأديان بمفهومه الحديث ، بل هي تابعة كلية لعلم الفلسفة الديني كما بينا ذلك سابقاً . ولكن لما كانت الإجابة على التساؤل عن أصل الدين ومنبعه ، لدى المفكرين اليونانيين ، على اختلاف مناهجهم ، ونزعاتهم ، متطابقة مع النتيجة التي توصل إليها علماء الأديان في العصور المتأخرة ، وكذلك لما كانت قضية مسائل الدين ، أو طرق بحثها مطلقاً ، لم تقسم لدى المفكرين اليونانيين في العصر القديم ، فلم يستقل علم الأديان المقارن عن الفلسفة الدينية ، كما حدث في العصر الحديث ، جاز لنا أن نعرض بإيجاز آراء المفكرين اليونانيين حول منبع الدين .

عندما يحاول المرء - كما هو الحال لدى الطبيعيين اليونانيين - توضيح الأعمال الروحية في الكون - التي يكون الدافع إليها الحب والبغض - من الحركات الذرية ، فلسوف يقوده البحث إلى محاولة فهم ظاهرة الدين من الغرائز الأساسية في الإنسان ، وهذا ما حدث في العصر القديم حين ظهرت في الدعوى التي لم ينته البحث فيها حتى الآن ، ألا وهي أن منشأ الدين هو الخوف من قوى الطبيعة الهائلة . ذهب إلى هذا الفيلسوف الطبيعي "ديموكريتس Democrite" (٤٦٠ - ٣٧١) ، ومال أيضاً - كما مال كثيرون غيره ممن جاءوا بعده - إلى أن الاعتقاد في الآلهة كان في أول الأمر اختراع رجال كانوا متفوقين على غيرهم في الإدراك ، أخبروا أن زيوس يسكن في السماء .^{١٥٠} وفيما يتعلق بتصور عقاب الجحيم يقول "ديموكريتس" : إنه انعكاس للضمير السيئ ، الذي ينتظر العقاب - على ما اقتراف من آثام - في الحياة الأخرى المتخيلة ، لأنه لم يأخذ جزاءه في هذه الحياة . ويعلل "أبيقور Epicure" ^{١٥١} أصل الاعتقاد في الله بتعليل مشابه تماماً لما ذهب إليه ديموكريتس .^{١٥٢}

تحدثنا فيما سبق عن رأى "بروديكس Prodikos" في تفسير الأساطير الدينية ، فهو لا يرجع أصل الدين إلى الخوف ، بل يرى أن منشأ الدين راجع إلى القيام بالشكر على النعم التي يتلقاها الإنسان من الطبيعة ، فالمرحلة الأولى تكونت أساساً نتيجة تعظيم الظواهر الطبيعية التي تلعب دوراً هاماً في حياة الإنسان ، وبعد هذه المرحلة انتقلت نظرة الإنسان الدينية - هكذا يقول "Prodikos" - إلى مرحلة ثانية

¹⁴⁹ فيلسوف يوناني ذهب إلى أن كل كائن مركب من ذرات لا تحصى ، وأن السعادة تقوم بضبط أهواء النفس . وهو يعتبر مؤسس الفلسفة المادية.

¹⁵⁰) Fragm. 30

¹⁵¹ فيلسوف يوناني (٣٤١ - ٢٨٠ ق.م.) فلسفته عملية . يقول فيها : إن في اللذة سعادة الإنسان ، واللذة قبل كل شيء ، العقلية والروحية كالصداقة والفضيلة . نفى وجود العناية الإلهية . حذ النظريات الفلسفية .

¹⁵²) fragm b. Nestle 360

أعلى من السابقة ؛ تعظيم طبيعة إلمية ، لم تحل هذه المرة في ظواهر الطبيعة ، بل في إنسان أدى خدمات جليلة لقبيلته أو مجتمعه أو للإنسانية .¹⁵³

لم يتفرد " بروديكس Prodikos " بهذا التفسير ، بل ذهب إليه أيضاً "أوفيميروس Euphemeros" - توفي عام ٢٩٨ ق.م. - واشتهر به لدرجة أن المدرسة الفلسفية التي نسبت إلى اسمه عُرِفَت بين الباحثين حتى اليوم بهذه الطريقة في تفسير منشأ الاعتقاد في الله . ولازل علماء الأديان حتى عصرنا الحاضر ينسبون هذا الاتجاه إليها . ومن اعتقد هذا المبدأ أيضاً " ديودور Diodor " " المعاصر لأغسطس .

تدور آراء هؤلاء العلماء إجمالاً في مدار واحد ؛ وهو محاولة ربط الأسباب المادية بالتعليل المنطقي ، للاستدلال على أن الدين كان عملاً مخترعاً ، قَبِلَهُ العقل البدائي تحت تأثير بواعث مختلفة ، دفعته إلى أن يصوغه في صور شرائع وتعاليم ، كما بينا ذلك سابقاً عند السوفسطائيين ، إذ تعتبر صياغتهم لهذا الاتجاه هي " الصيغة العلمية " التي تعبر عن آراء العلماء الماديين في العصر القديم حول أصل الدين وكيفية نشأته . خالف أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.) هذا الاتجاه مخالفة جوهرية ، فنحن نرى - لأول مرة - فيلسوفاً يرجع نشأة الدين إلى أسباب روحية ، ويعارض معارضة تامة فكرة إرجاع أصل الدين إلى أسباب مادية خالصة ؛ فهو يرى أن الدين يتكون من متبعين :

• التجربة الروحية داخل الإنسان ، ويعنى بذلك قدرة الروح على إدراك ما حولها ، والتفكير فيه ، ثم محاولة تخليص نفسها منه ، لتصفو من الشوائب المادية ، وتكسب - في حالة الأحلام - كشافاً غير عادي .

• العجب من قوى الطبيعة ، وعلى الأخص من عالم النجوم ، وعبر الإنسان عن ذلك بالأساطير التي توضح دهشته من أسرار السماء المزينة بالنجوم الكثيرة.¹⁵⁴

وعليه فيمكن القول بأن أرسطو كان أول من بين أن أصل الدين راجع - جزئياً - إلى الإنسان نفسه، وإلى ممارسته ، ومشاهدته لظواهر الطبيعة ، وإلى تفاعل هذا كله مع طبيعته الروحية ، وصفاته النفسى، فقد كان يشير أيضاً بين الحين والآخر إلى أن الدين - كما يظهر له في تعاليمه الغامضة - ليس درساً

¹⁵³) Vgl. Fragm. 5. Nestle 173

¹⁵⁴ مؤرخ يوناني عاش في القرن الأول الميلادي في صقلية ، وكتب تاريخ العصر القديم حتى عام ٥٤٤ م في أربعين جزءاً ولم يبق منها سوى الأجزاء من ١-٥ ، ومن ١١-٢٠ .

¹⁵⁵) Mensching S. 30

يتعلمه الإنسان فيصير متديناً ، بل هو تصديق قلبي روحاني ، وممارسة ماتليه هذه الظاهرة الروحانية . وبهذا شاع في الفكر اليوناني أن أصل الدين له منطقة أخرى - بجانب ما كان شائعاً قبل أرسطو من أنه نابع من الظواهر المادية فقط - داخل الإنسان نفسه.

ظهر في القرن الأول قبل الميلاد رأى جديد حول منبع الدين - لم يزل الاتجاه السائد عند كثير من العلماء حتى اليوم - ، وكان أول من قال به الرواقى "بوزيدونيوس Poseidonios" ؛ فقد فرق لأول مرة بين منبعين للدين ، أحدهما: فطرى غريزى يولد به الإنسان ، والآخر: مكتسب يتلقاه من الجو المحيط به : " يشترك الناس جميعاً - متحضرهم وبدائهم - في المنبع الأول للدين ، وذلك هو الغريزة الفطرية في الاعتقاد في الألوهية الذى يتولد من الواقع ومن التصديق ؛ فلا يختار ، ولا يحدث عن طريق الصدفة ، وهو قديم قدم الإنسان ، لم يصبه الخمول إطلاقاً ، بل نشط إلى أقصى حدود النشاط ، ظهر بين كل الشعوب واستمر ، ويمكن أن يعتبر نفعاً عاماً لكل فرد من أفراد السلالات التى تميزت بالعقل والإدراك ."¹⁵⁶

يحتوى هذا النص على الأفكار التى كانت - وما زالت - محل بحث في علم الأديان :

- الدين غريزة في الإنسان (فطرة الله التى فطر الناس عليها) .
- وهو عام بين أفراد البشر قاطبة .
- العقل هو مستقره الأساسى ، ولذا فهو تصور عقلى للألوهية .

ذلك هو ما يعرف باسم " الدين الفطرى الطبيعى " ، ظهر على مسرح الفكر اليوناني ، واهتم به علم الأديان المقارن ، ولم يزل من المواضيع الرئيسة التى يبحثها العلماء عند دراسة الظواهر الدينية في الأديان المختلفة .

نلاحظ أن " poseidonios " تجاوز النظريات الإلحادية لدى معظم المفكرين المذكورين في تاريخ الفكر اليوناني القديم ، حيث يرى أن الإنسان واقع تحت تأثير الدين ، ويتصور تصوراً ذاتياً نابعاً من تجارب شخصية ، وهو الطريق لإدراك الحقيقة ذات التأثير الفعال ، هى حقيقة الألوهية الخالقة . وبهذا التفاعل بين التأثير والتصور - ويتعبّر آخر : التطابق بين الدين والفطرة في الإنسان - يميز " Poseidonios " الدين من الحقائق التى يتعلمها الإنسان : " الحقائق المكتسبة عن طريق التعليم " ، هى تلك التى تغرس في الروح عن

¹⁵⁶ المصدر السابق ٣١

طريق الكلمات ، والقصص الدينية ، والآداب التي ليس لها مؤلف معروف تنسب إليه ، ولكنها من ناحية أخرى دونت في سجل ، ونسبت إلى قوة ذات مكانة عالية . " ١٥٧

إذن يتكون الدين من عنصرين:

أحدهما مشترك بين الأديان جميعاً ، وهو روح الإنسان وفطرته ، وإليه يرجع بالتأكيد - كما يقول " Poseidions " - : الجزء الصادق الذي لا يتطرق إليه أدنى شك .

أما العنصر الثاني فتختلف فيه الأديان وتفرق ، وهو التعاليم الخاصة بكل دين : تصور الإله ، كيفية خلق العالم ، العبادات ، المعاملات ... الخ

تاريخ الأديان

بدأ تدوين علم الدين التاريخي - أو علم تاريخ الأديان - تدويناً علمياً مستقلاً في بلاد اليونان ، بعد فتح الإسكندر الأكبر ، وكان " تيوفراستوس Theophrastos " أول مؤرخ يوناني للأديان ١٥٨ . بدأ في كتاباته التاريخية معالجة المادة الدينية معالجة منهجية ؛ فهو يحاول أن يستدل عن طريق المقارنة على أن التقرب إلى الله بالأضحية - أى بإحراق الدم - ضلال وبعد عن الصواب ، كان نتيجة تصور خاطئ للذات الإلهية . وقد كتب كثير من المؤرخين في العصور التالية في علم التاريخ الديني ، ولا يتسع المقام للتحدث عنهم تفصيلاً ، لذلك نذكر نبذة عن البارزين منهم :

- " سترابون Strabon " (٦٣ ق.م. - ٢٠ م.) : عالم جغرافي رحالة ، رار مصر في عام ٢٥ م ، وكتب التاريخ من عام ١٤٤ ق.م. حتى نهاية الحرب الأهلية - قيل إنها انتهت في عام ٢٧ ق.م.

- " باوزانياس Pausanias " : عالم آثار ، وكاتب . مسقط رأسه آسيا الصغرى ، ارتاد اليونان وآسيا الصغرى ، وسوريا ، ومصر ، وليبيا ، وإيطاليا ، وكتب وصفاً لليونان في الفترة ما بين عامي ١٨٠ ، ١٦٠ ق.م. ، وهو من المصادر الهامة في تاريخ الفن القديم ، والدين ، وجغرافية اليونان .

¹⁵⁷ (المصدر السابق ٤٢)

¹⁵⁸ (المصدر السابق ٣٣)

- " بلوتارش Plutarch " : فيلسوف يوناني - سبق الكلام عنه - . كان لكتابه : " De Jside et Osiride " أهمية كبرى لدى علماء تاريخ الأديان .
- " تير فارو Ter Varro " (١١٦ - ٢٧ ق.م .) : كان من أبرز العلماء والكتّاب في روما ، ألف كثيراً من الكتب في مختلف الفنون ، ومن أهم مؤلفاته في تاريخ العلوم العقلية دائرة معارف العصر القديم الروماني السياسية والثقافية المعروفة تحت اسم : " Antiquitates rerum humanarum et dirinarum "
- " لوكيان Lukian " : كاتب يوناني ، ألقى محاضرات عديدة في أماكن عدة في آسيا واليونان ، وكتب كتيبات كثيرة ، استهزأ فيها من عادات عصره ، و"الخداع" الديني، وسرعة اعتقاد العامة في كل شيء حتى وإن كان منافياً للعقل .
- " تاكيتوس Tacitus " : مؤرخ روماني ، قدم للباحثين في الأديان معلومات قيمة عنها ، لم توجد في أى مصدر آخر .

ومع كثرة هذه الكتب التاريخية ، فإن الأبحاث الدينية المستقلة في العصر القديم لم تذكر شيئاً ذابال عن أديان الشعوب الأخرى ، إذ انحصرت في أديان اليونان والرومان^{١٥٩} ، إلا أنها اشتملت على مبادئ قيمة لعلم الدين المنهجي ، سواء كان ذلك في مجال علم الأديان المقارن ، أو في مجال علم الدين التاريخي .

لم تمت الأفكار التي ظهرت في محيط ذلك العلم المنهجي - سواء ما كان منها صحيحاً وما ظهر بطلانه - ؛ فهي تبرغ بين الحين والآخر ، تبعاً للتيارات الفكرية التي تهب على المجتمع ، فالمراجع التاريخية مستمرة حتى اليوم في تقديم مادة علمية قيمة لعلم تاريخ الأديان .

* * *

¹⁵⁹ لا يتناقض هذا مع ما كتبه هيروdot - المتوفى في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد - ، لأنه لم يكتب عن الأديان كتابة مستقلة ، بل كانت أخباراً متناثرة بين طيات ما كتبه عن الشعوب التي رحل إليها ، أي أنها كانت ممزوجة بالأوصاف الإقليمية .